أفعال الله -تعالى- عند مقاتل بن سليمان

الباحث/ عماد إبراهيم حسن حمزة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاةُ والسلامُ علي سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وعلى وآله وصحبه ومن سار على دربه بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد: العقيدة هى المحرك الطبيعى والباعث الحقيقى للإنسان ، وهى تُعدُّ ضرورة من ضروريات الإنسان التى لاغنى عنها ، وذلك لأن الإنسان بحسب فطرته ، يميلُ إلى اللجوء إلى قوةٍ عُليا يعتقد فيها القوة ، والسيطرةَ الكاملةَ عليه وعلى المخلوقات من حوله وهذا الإعتقادُ يُحقق له الميل الفطرى للتدين ، ويُشبع نزعته تلك . فإذا كان الأمر كذلك فإن أول ما يُحقق ذلك هو الإعتقادُ الصحيح الذى يُوافق تلك الفطرة ، ويحترم عقل الإنسان ومكانته في الكون ، وهذا ما جاءت به العقيدة الإسلامية ، قال تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) (سورة الأنعام: الآية: ٨٢) لأن العقيدة هى التى يَحيا بها المؤمنُ الحياة الحقيقية ، وتزكوا بها نفسه ، وتستقيم بها أعماله ، وتُقبَلُ بها طاعاته وتُرتَفَعُ بها درجاته عند الله – عزوجل– ، وإذا اختلت العقيدة ، أو فسدت ، أو ذهبت انعكس ذلك على شؤونه وأعماله جميعا.

والعقيدة هى بمثابة العروة الوثقى وفى الحديث النبوى الشريف " عَنْ عَبْدِ اللَّه بْنِ سَلاَمٍ، قَالَ: رَأَيْتُ كَأَنِّي فِي رَوْضَةٍ، وَوَسَطَ الرَّوْضَةِ عَمُودٌ، فِي أَعْلَى العَمُودِ عُرْوَةٌ، فَقِيلَ لِي: ارْقَهْ، قُلْتُ: لاَ أَسْتَطِيعُ، فَأَتَانِي وَصِيفٌ فَرَفَعَ ثِيَابِي فَرَقِيتُ، فَاسْتَمْسَكْتُ بِالعُرْوَةِ، فَانْتَبَهْتُ وَأَنَا مُسْتَمْسِكٌ بِهَا، فَقَصَصْتُهَا عَلَى النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَقَالَ: تِلْكَ الرَّوْضَةُ ، رَوْضَةُ الإِسْلاَمِ، وَذَلِكَ العَمُودُ ، عَمُودُ الإِسْلاَمِ، وَتِلْكَ العُرْوَةُ ، عُرْوَةُ الوُثْقَى، لاَ تَزَالُ مُسْتَمْسِكًا بِالإِسْلاَمِ حَتَّى تَمُوتَ»

ولعل علم التفسير بما له من فضل في بيان ما نزل من عند الله وتفصيل لأحكامه ،مما ظهر جليا في توسع علماء الأمة عبر قرون الإسلام الأولى ، فأثمرت عن كثرة التفاسير

وتنوع مدارسها من جيل إلى جيل ، مما جعلنى أقوم بالبحث في واحد من أقدم التفاسير ألا وهو تفسير مقاتل بن سليمان البلخى (ت ١٥٠هـ) .

وموضوع الدراسة هو دراسة (قضايا العقيدة في تفسير مقاتل بن سليمان البلخى ت١٥٠ه)

Summary

The creed is the natural engine and the real motivator for man, and it is considered one of the indispensable necessities of man, because according to his nature, man tends to resort to a higher power in which he believes in power and complete control over him and the creatures around him. That tendency. If this is the case, then the first thing that achieves this is the correct belief that agrees with that instinct and respects the mind of man and his position in the universe, and this is what the Islamic creed came with. The Almighty said: Verse: ٨٢) Because the creed is by which the believer lives the true life, purifies himself by it, straightens his deeds, accepts his obedience and raises his ranks with God.

-Glory be to Him, and if the belief is distorted, corrupted, or lost, this will reflect on all of his affairs and actions ،.On the highest of the column is a nudity, so he said to me: I have a thinness, I said: I do not stand up, so I came to me and a lifetime, so I raised my clothes, so I was separated.

-May God bless him and grant him peace- and he said: That ritual, the ritual of Islam, and that is the blind, the baptism of Islam, and that is the nakedness, no

Perhaps the knowledge of tafsir has its merit in explaining what was revealed from God and detailing its rulings.

What was evident in the expansion of the nation's scholars over the first centuries of Islam, which resulted in the many interpretations and the diversity of their schools from generation to generation, which made me research one of the oldest interpretations, which is the interpretation of Muqatil bin Suleiman Al-Balkhi d. ١٥٠ AH.

The subject of the study is a study (issues of belief in the interpretation of Muqatil bin Suleiman al-Balkhi, ١٥٠ AH.

أفعال الله عند مقاتل:

إن الله –سبحانه وتعالى– فاعل مختار ، يتصرف فى ملكه كيف يشاء بمقتضى مشيئته وحكمته ، لأنه خالق الخلق ومُوجِدهُم من العدم ، فهذا ملكه يتصرف فيه كيف يشاء ، كما يتصرف العباد فى أملاكهم من غير حرج عليهم ، فإن مالك الكون ' إذا أراد أن يُخرج أى شىء من كونه سواءً عبيدا أم غيرهم لم تُنكر العقول ذلك ، فإذا تصرّف الرب بخلقه فهو مالكهم وسيّدهم ، لأنه هو الذى خلقهم وشق لهم سمعهم وأبصارهم ، ورزقهم ومنّ عليهم بالنّعم التى لايقدر على شىء منها إلا هو ، تعالت قدرته وتقدّست أسماؤه . قال تعالى: (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[١] قال مقاتل فى هذه الآية: أن الله –عزوجل– بيده ملك كل شىء يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء فهو قادر على أن يؤتى ملكه لنبيه –صلى الله عليه وسلم– وقادر على أن ينزع الملك من فارس والروم وهذا هو سبب نزول الآية عند مقاتل عندما سأل محمد –صلى الله عليه وسلم– ربه أن يؤتيه ملك فارس والروم فنزل قول الله –عزوجل– (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ) وذكر أن بيد الله الخير لا بِيدِ غيره ، فهو الملك الذى يُعز ويُذل ، فقال: ليس فوقى ملك يُحاسبنى ، أنا الملك أُعطى من شئت بغير حساب ، لا أخاف من أحد يُحاسبنى[٢] وقال تعالى: (وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)[٣] قال مقاتل: أى أن الله –تعالى– ما ظلمهم حين أهلك نفقات سفلة اليهود فلم تُقبل منهم [٤] . وقال أيضا: (وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)[٥]

يقول مقاتل: أى أن الله –عزوجل– لم يُعذب على غير ذنب [٦] فيُفهم من تفسير مقاتل فى هذه الآية أن الشر ليس إلى الله بوجه من الوجوه ، وإن كان خالق أفعال العباد ، فهو يُعز ويُذل ، ويُعذب ويرحم ، ويُعطى ويمنع ، وهذا كله عدل منه –سبحانه وتعالى– .

وهذا التفسير هو ما أشار عليه شيخ الإسلام بن تيمية –رحمه الله– بقوله: (فالشر ليس إلى الله بوجه من الوجوه ؛ فإنه وإن كان الله خالق أفعال العباد فخلقه للطاعات نعمة ورحمة، وخلقه للسيئات له فيه حكمة ورحمة، وهو مع هذا عدل منه، فما ظلم الناس

(١)(سورة آل عمران الآية ٢٦)
(٢) تفسير مقاتل ج١ ص٢٦٩
(٣)(سورة آل عمران الآية ١١٧)
(٤) المصدر السابق ج١ ص٢٩٧
(٥)(سورة آل عمران الآية ١٨٢)
(٦) المصدر السابق ج١ ص٣١٩

شيئاً، ولكن الناس ظلموا أنفسهم)[١] فكل أفعاله -سبحانه- كائنة ما كانت خير لا شر فيها ، وعدل لاظلم فيها ، لأنه حكم عدل ، يضع كل شيء في موضعة الذى يناسبه ، وأنه لايُسأل عما يفعل ، وعما يخلقه ، وعما يشاء وجوده وعدمه ، وفى هذا يقول سبحانه:(لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ)[٢] يقول مقاتل: لايُسأل الله -تعالى- عما يفعله فى خلقه ، وهو يسأل الملائكة فى الآخرة أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل[٣]

وأيضا قوله تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)[٤] قال مقاتل: أى ما تنحتون من الأصنام [٥] ويُفهم من تفسيره أى أن الله خلق الذى تصنعونه على العموم ، فيدخل فيها الأصنام التى ينحتونها دخول أولياء ، ويُفهم أيضا أن الله خلقهم وخلق أعمالهم ، فالمنحوت مخلوق لله -تعالى- لأنه من آثار فعلهم ، فلآية نص جليّ على أنه تعالى خلق أفعال العباد ، لأنه أثبت الخلق لله وحده فقال: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ) وباقى الآية (وَمَا تَعْمَلُونَ) دليل واضح على أن فعل العبد فعل له حقيقة لأنه أثبت الفعل للعبد ، والله خالق الكل ، ولا خالق سواه . ويقول شيخ الإسلام بن تيمية: (والعباد فاعلون حقيقة ، والله خالق أفعالهم ، والعبد هو المؤمن والكافر ، والبرّ والفاجر ، والمصلّى والصائم ، وللعباد قدرة على أعمالهم ، ولهم إرادة ، والله خالقهم ، وخالق قدرتهم وإرادتهم) [٦]

ويقول فى موضع آخر: (وأما من قال: خلق الربّ -تعالى- لمخلوقاته ليس هو نفس مخلوقاته ، قال: إن أفعال العباد مخلوقة كسائر المخلوقات ، ومفعولة للربّ كسائر المفعولات ، ولم يقل إنها نفس فعل الربّ وخلقه ، بل قال إنها نفس فعل العبد ، وعلى هذا تزول الشبهة ، فإنه يُقال: الكذب والظلم ونحو ذلك من القبائح يتصف بها من كانت فعلاً له ، كما يفعلها العبد وتقوم به ، ولا يتصف بها من كانت مخلوقة له إذا كان قد جعلها صفة لغيره ، كما أنه -سبحانه- لايتصف بما خلقه فى غيره ، من الطعوم ، والألوان ، والروائح ، والأشكال ، والمقادير ، والحركات ، وغير ذلك)[٧] وهذا ما اتفق عليه سلف الأمة وأئمّتها ، كما نص على ذلك سائر أئمة الإسلام: كالإمام أحمد ومن قبله وبعده[٨] وقد أيّد مقاتل ما ذهب إليه سلف الأمة وأئمتها بأن الله هو المنفرد بالخلق وأن

(١) الحسنة والسيئة: ابن تيمية: تحقيق ، د/ محمد جميل غازى ، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان: ص٩٤

(٢)(سورة الأنبياء الآية ٢٣)

(٣) تفسير مقاتل ج٣ ص٧٥

(٤)(سورة الصافات الآية ٩٦)

(٥) المصدر السابق ج٣ ص٦١٢

(٦) العقيدة الواسطية: ابن تيمية ١٧٥ ط٤ /١٤٠٧ه مع شرح الدكتور: صالح الفوزان

(٧) مجموع فتاوى: ابن تيمية ١٢٣/٨

(٨) المصدر السابق ٤٠٦/٨

سائر الشركاء لايخلقون شيئا وذلك فى قوله تعالى: (قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ)[1] قال مقاتل: لاشريك له ثم قال وهو القهار وأما الآلهة فهى مقهورة وذليلة[2] فهنا يُفهم من من تفسير مقاتل أن الله –تعالى– هو المنفرد بالخلق لا أحد سواه وأيضا ليس معه شريك فى الخلق ونُقِلَ عن الزجاج: أن الله خلق الكافر، وكفره فعل له وكسب، مع أن الله خالق الكفر. وخلق المؤمن، وإيمانه فعل له وكسب، مع أن الله خالق الإيمان . والكافر يكفر ويختار الكفر بعد خلق الله إياه، لأن الله –تعالى– قدّر ذلك عليه وعلمه منه . ولا يجوز أن يُوجد من كل واحد منهما غير الذي قدّر عليه وعلمه منه لأن وجود خلاف المقدور عجز، ووجود خلاف المعلوم جهل، ولا يَليقان بالله –تعالى–. قال القرطبى: وهذا أحسن الأقوال، والذي عليه الأئمة والجمهور من الأمة [3]

وذكر ابن كثير فى تفسيره فقال: له الملك وله الحمد أي هو المتصرف في جميع الكائنات ، المحمود على جميع ما يخلقه ويقدّره . وقوله تعالى: وهو على كل شيء قدير أي ما أراد كان بلا ممانع ولا مدافع وما لم يشأ لم يكن. وقوله تعالى: هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن أي هو الخالق لكم على هذه الصفة، وأراد منكم ذلك فلا بد من وجود مؤمن وكافر، وهو البصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال، وهو شهيد على أعمال عباده وسيجزيهم بها أتم الجزاء [4]

ومما سبق يتبين لنا أن أفعال العباد تُنسب إليهم فعلاً وكسبا واختياراً ، وتُنسب إلى الله خلقاً وقدراً وإيجاداً ، وأن لهم مشيئة وإرادة ولكنها تابعة لمشيئة الرب –سبحانه وتعالى– ليست مستقلة عنها وليست سابقة لها .

المشيئة عند مقاتل

لقد أثبت الله –سبحانه وتعالى– فى كتابه العزيز المشيئتين: مشيئة الربّ ومشيئة العبد ، وبيّن أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الربّ وذلك فى قوله تعالى: (إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً وَما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً)(سورة الإنسان الآية ٢٩–٣١) يقول مقاتل: ثم رد المشيئة إليه فقال: (وَما تَشاؤُنَ) أنتم أن تتخذوا إلى ربكم سبيلا (إِلاَّ أَنْ

(١)(سورة الرعد الآية ١٦)

(٢) تفسير مقاتل ج٢ ص٣٧٣

(٣) الجامع لإحكام القرآن: للقرطبى ، دار إحياء التراث العربى ، ج١٨ ص١٣٣

(٤) تفسير ابن كثير: ج٨ ص١٥٩

يَشاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ) فَهوّن عليكم عمل الجنة (إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً) يعنى بأهل الجنة (حَكِيماً) إذ حكم على أهل الشقاء بالنار .

ثم ذكر العلم والقضاء بأنه إليه ، فقال: (يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ) يعنى فى جنته ، (وَالظَّالِمِينَ) يعنى المشركين (أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً) يعنى وجيعا[1] وكذلك قوله تعالى: (لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ)(سورة التكوير الآية٢٩) قال مقاتل: لمن شاء منكم أن يستقيم على الحق ، ثم رد المشيئة إلى نفسه -سبحانه- فقال: (وَما تَشاؤُنَ) أى على الإستقامة (إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ) [2]

فهنا بيّن مقاتل -رحمه الله- أن مشيئة العباد ليست مستقلة عن مشيئة الله ، فالأمر إليه -سبحانه- ليس إليهم .

وهذه الآية رد على الطائفتين: المجبرة الجهمية والمعتزلة القدرية فإنه -تعالى- قال: (لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ) فأثبت للعبد مشيئة وفعلا ، ثم قال: (وَما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ) فبين أن مشيئة العبد معلقة بمشيئة الله . والأولى رد " على الجبرية وهذه رد على القدرية الذين يقولون: قد يشاء العبد ما لا يشاؤه الله كما يقولون: إن الله يشاء ما لا يشاءون [3]

الهدى والضلال فى تفسير مقاتل:

لقد بيّن مقاتل فى تفسيره أن الله يهدى من يشاء ويُضل من يشاء ، وأن الأمر بيده ، فمن شاء أن يهديه جعله على صراط مستقيم ، ومن شاء أن يضله أضله . قال تعالى: (مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ)(سورة الأنعام الآية٣٩) قال مقاتل: (مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ) عن الهدى (وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ) يعنى على دين الإسلام [4]

وهو يعنى بذلك التوحيد فالتوحيد عند مقاتل هو الإسلام ، وقد أخبر -سبحانه وتعالى- أنه لوشاء ما أشرك الناس ، وأنه لو شاء لهداهم أجمعين ، فقال سبحانه: (وَلَوْ شاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا)(سورة الأنعام الآية ١٠٧) قال مقاتل: ولو شاء الله لمنعهم من الشرك [5] وقال سبحانه: (وَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ)(سورة النحل الآية ٩) قال مقاتل: يعنى لو شاء

(١) تفسير مقاتل ج٤ ص٥٣٦
(٢) المصدر السابق ج٤ ص٦٠٥
(٣) مجموع الفتاوى: ابن تيمية ج٨ ص٤٨٨
(٤) تفسير مقاتل ج١ ص٥٦٠
(٥) المصدر السابق ج١ ص٥٨٣

لهداكم أجمعين إلى دينه[١] ويُفهم من هذا أن الله –تعالى– إذا هدى العبد إلى دينه فقد هداه إلى الطريق الصحيح وإلى الطريق المستقيم الذى لا إعوجاج فيه ولكنه لم يشأ ، فأراه الطريقين قال تعالى: (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) يقول مقاتل: بينا له سبيل الخير والشر[٢]وقال ابن جرير: وهديناه الطريقين ثم قال: وعن أبى زر، الخير والشرّ. ثم قال: وعن ابن عباس ، الهدي والضلالة[٣] وقد اقتضت مشيئته –سبحانه وتعالى– أن يكون فى العباد مؤمنا وكافراً كما قال تعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ)(سورة النحل الآية ٣٦) قال مقاتل: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ) يعنى وحّدوا الله (وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) يعنى عبادة الأوثان (فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ) إلى دينه (وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ) يعنى وجبت عليه الضلالة ثم قال بعدها: أن من أضله الله فلا هادى له[٤] وقد أيّد الإمام القرطبى كلام الإمام مقاتل فقال فى قوله تعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ) أي بأن اعبدوا الله ووحدوه. (وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) أي اتركوا كل معبود دون الله كالشيطان والكاهن والصنم، وكل من دعا إلى الضلال. (فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ) أي أرشده إلى دينه وعبادته. (وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ) أي بالقضاء السابق عليه حتى مات على كفره، وهذا يرد على القدرية، لأنهم زعموا أن الله هدى الناس كلهم ووفقهم للهدى، والله –تعالى– يقول:(فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ)[٥]

وفى قوله تعالى:(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً) (سورة الإنسان الآية ٣)
يقول مقاتل: (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ) يعنى سبيل الضلالة والهدى (إِمَّا) أن يكون (شاكِراً) يعنى موحدا فى حُسن خُلقه لله –تعالى– (وَإِمَّا كَفُوراً) فلا يوحده[٦] ويقول ابن كثير فى قوله تعالى:(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)(سورة الإنسان الآية–٣) أي بيناه له ووضحناه وبصرناه به ويقول أيضا: أي بينا له طريق الخير وطريق الشر، وهذا قول الجمهور[٧] وفى قوله تعالى:(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها)(سورة الشمس

(١) المصدر السابق ج٢ ص٤٦١
(٢) المصدر السابق ج٤ ص٧٠٢
(٣) تفسير الطبرى ج٢٤ ص٤٣٧
(٤) تفسير مقاتل ج٢ ص٤٦٨
(٥) الجامع لإحكام القرآن: للقرطبى ، دار إحياء التراث العربى ، ج١٠ ص١٠٤
(٦) تفسير مقاتل ج٤ ص٥٢٣
(٧) تفسير ابن كثير ج٨ ص٢٩٣

الآية ٩، ١٠) يقول مقاتل:(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها) يعنى قد أسعدها الله ، يعنى أصلحها الله -تعالى- فإن من أصلحه الله فقد أفلح (وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها) يعنى وقد هلك من أشقاه الله -عزوجل[١] وقال الإمام القرطبى: والمعنى: أفلح فاز. من زكاها أي من زكى الله نفسه بالطاعة. (وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها) أي خسرت نفس دسها الله -عزوجل- بالمعصية . وقال ابن عباس: خابت نفس أضلها وأغواها. وقيل: أفلح من زكى نفسه بطاعة الله، وصالح الأعمال، وخاب من دس نفسه في المعاصي، وهو قول قتادة وغيره [٢] إذن الإمام مقاتل يُبين فى تفسيره أن الله -تعالى- قد وهب لعباده حرية الإختيار فى أن يفعلوا أو لا يفعلوا وبيّن أيضا أن هداية الله -سبحانه- لعباده إلى الحق بما نصبه لهم من الآيات فى المخلوقات ، وإرسال الرسل ، وإنزال الكتب . وهذا قول غيره من المفسرين . ويُبين الإمام مقاتل أيضا أن عدم اهتداء الناس لم يكن لأجل نقص فيما خلقه الله لهم فى حواسهم ، بل لأجل ما صار فى طبائعهم من التعصب والمكابرة للحق ، والمجادلة بالباطل ، والإصرار على الكفر وهذا يتضح فى تفسير الإمام مقاتل لقول تعالى: (بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً)(سورة النساء الآية ١٥٥) حيث قال: يعنى ختم على قلوبهم[٣]

وفى قوله تعالى: (فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ)(سورة الصف الآية ٥) قال مقاتل: يعنى مالوا عن الحق وعدلوا عنه (أَزاغَ اللَّهُ) يعنى أمال الله (قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي) إلى دينه من الضلالة (الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ) يعنى العاصين[٤] وعلى هذا فإن إسناد الهداية والإضلال إلى الله -تعالى- إسناد من حيث أنه خلق أفعال العباد ، ووضع لهم الأسباب والمسببات ، لا أنه جبر الإنسان على الضلالة أو الهداية . فقد جعل -سبحانه وتعالى- الإيمان والعمل الصالح سببا فى الإهتداء ، وجعل الكفر والمعاصى سببا فى الضلال . فمن أراد الله هدايته للحق يُوفقه للإيمان ويُعنه على العمل الصالح ، وييسّر له سبله ويجعل له القبول فى نفسه ، ومن أراد إضلاله يجعل صدره ضيقا حرجا ، فختم على قلبه وطبع عليه ، فامتنع بذلك عن وصول الهدى إليه . وفى ذلك يقول سبحانه: (فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَاتَّقى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ

(١) تفسير مقاتل ج٤ ص٧١١

(٢) الجامع لإحكام القرآن: للقرطبى ، دار إحياء التراث العربى ، ج٢٠ ص٧٧

(٣) تفسير مقاتل ج١ ص٤٢٠

(٤) المصدر السابق ج٤ ص٣١٦

وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى وَما يُغْنِي عَنْهُ مالُهُ إِذا تَـرَدَّى إِنَّ عَلَيْنـا لَلْهُدى وَإِنَّ لَنا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولى) (سورة الليل الآيات ٥-١٢) .

يقول مقاتل فى تفسير هذه الآيات: فَأَمَّا مَنْ أَعْطى المال في حق الله- عزوجل- وَاتَّقـى نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق- رحمة الله عليه- وذلك أنه مر على أبي سـفيان، وهو صخر ابن حرب، وإذا هو يعذب بلالا على إسلامه، وقد وضع حجرا على صـدره فهو يعذبه عذابا شديدا، فقال له أبو بكر الصديق- رحمة الله عليه-: أتعذب عبـدا علـى معرفة ربه ؟ قال أبو سفيان: أما والله، إنه لم يُفسد هذا العبـد الأسـود غيـركم، أنـت وصاحبك، يعني رسول الله- صلى الله عليه وسلم-. قال له أبو بكر- رضي الله عنـه-: هل لك أن أشتريه منك ؟ قال: نعم. قال أبو بكر: والله ما أجد لهذا العبد ثمنـا. قـال لـه صخر بن حرب: والله إن جبلا من شعرٍ أحبّ إلي منه، فقال له الصديق أبو بكـر: والله إنه خير من ملء الأرض ذهبا. قال له أبو سفيان: اشتره مني! قال لـه أبـو بكـر: قـد اشتريت هذا العبد الذي على ديني، بعبد مثله على دينك، فَرَضِيَ أبو سفيان، فاشترى أبو بكر بلالاً- رضي الله عنه- فأعتقه . قال أبو سفيان لأبي بكـر- رضـي الله عنـه-: أفسدت مالك ومال أبي قحافة . قال: أرجو بذلك المغفرة من ربي . قال: متى هذا ؟ قـال أبو بكر- رضي الله عنه-: يوم تدخل سقر تُعذب . قال: أليس تعدني هذا بعد المـوت ؟ قال: نعم. قال: فضحك الكافر واستلقى . وقال: يا عتيق أتعدنى البعـث بعـد المـوت ؟ وتأمرني أن أرفض مالي إلى ذلك اليوم ؟ لقد خسرت واللات والعزى إن مالك قد ضاع، وإنك لا تصيب مثله أبدا . قال له أبو بكر- رضى الله عنه-: والله، لأُذكّرنّك هذا اليـوم يا أبا سفيان .

فأنزل الله- عزوجل- (فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَاتَّقى وَصَـدَّقَ بِالْحُـسْنى) يقـول يعـده الله- عزوجل- أن يُخلفه في الآخرة خيرا، إذا أعطى في حـق الله- عزوجـل-(فَسَنُيَـسِّرُهُ لِلْيُسْرى) يعني نيسره للعودة إلى أن يُعطي فسنيسره للخير (وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْـتَغْنى) عن الله- تعالى- في نفسه (وَكَذَّبَ بِالْحُسْنى) يعني يعده الله بـأن يُخلفـه خيـرا منـه (فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى) يقول نعسّر عليه أن يُعطى خيرا (وَما يُغْنِي عَنْهُ مالُهُ) الذي بَخِـلَ به في الدنيا (إِذا تَرَدَّى) يعنى إذا مات، وتردى في النار، يعني أبا سـفيان، يقـول الله- تعالى-: (إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى) يعني بيان الهدى (وَإِنَّ لَنا لَلْآخِرَةَ وَالْـأُولى) يعنـى الـدنيا والآخرة [1]

(١) تفسير مقاتل ج٤ ص٧٢٢، ٧٢٣

وعَنْ عَلِيٍّ بن أبى طالب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي جَنَازَةٍ، فَأَخَذَ شَيْئًا فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهِ الأَرْضَ، فَقَالَ: (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلاَ نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدَعُ العَمَلَ ؟ قَالَ: اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ)، ثُمَّ قَرَأَ هذه الآيَات [١]

ومما يُؤيد تفسير مقاتل ، ما ذكره الإمام ابن كثير فى تفسيره فقال: قوله تعالى: (فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى) يعني للخير، وقال زيد بن أسلم: يعني للجنة، وقال بعض السلف: من ثواب الحسنة ، الحسنةَ بعدها، ومن جزاء السيئة ، السيئةَ بعدها، ولهذا قال تعالى: وأما من بخل أي بما عنده واستغنى قال عكرمة عن ابن عباس: أي بخل بماله واستغنى عن ربه -عزوجل- (وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى) أي بالجزاء في الدار الآخرة فسنيسره للعسرى أي لطريق الشر كما قال تعالى: (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ)(سورة الأنعام الآية١١٠) يقول مقاتل: (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ) يعني قلوبهم وَأَبْصارَهُمْ عن الْإِيمَان (كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ) يَقُولُ: كَمَا لَمْ يؤمن بها أوائلهم من الأمم الخالية بما سألوا من الآيات قبلها فكذلك كفار أَهْل مكة لا يُصدقون بها إن جاءتهم آية، ثُمّ قَالَ: (وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ) يعني فِي ضلالتهم يترددون لا نخرجهم منها أبدا [٢] والآيات في هذا المعنى كثيرة دالة على أن الله -عز وجل- يُجازي من قصد الخير بالتوفيق له، ومن قصد الشر بالخذلان، وكل ذلك بقدر مقدر[٣] وأيضا ما رُوِىَ عن أبا بكر الصديق -رضي الله عنه- قال: قلت لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: يا رسول الله أنعمل على ما فرغ منه أو على أمر مُؤْتَنَفٍ ؟[٤]

قال: بل على أمر قد فرغ منه قال: ففيم العمل يا رسول الله ؟ قال: كل ميسر لما خلق له[٥] وأما قوله تعالى: (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ كَذلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا

(١) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير ، باب فسنيسره للعسرى الفتح ٥٧٩/٨ برقم ٤٩٤٩ ، ومسلم فى كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمى ٢٠٣٩/٤برقم ٢٦٤٧ ، وغيرهما .

(٢) تفسير مقاتل ج١ ص٥٨٤

(٣) تفسير ابن كثير ج٨ ص٤٠٤

(٤) قوله: " على ما فُرغ منه "، قال السندي: أي: على وفْق ما كُتِبَ على الإنسان وفرغ منه من قدر الله . " أمر مؤتنف "، أي: على وفْق اختيار وإرادة وقصد من العبد مستأنف مبتدأ من غير سبق قضاء وقدر به، والمؤتنف اسم مفعول، من ائتنف العمل: استأنفه، افتعال من أنف، والأنسب بما بعده أن يقال: معناه: أنعمل لأجل ما قدر الله لنا من الجنة والنار، أو لتحصيل ما لم يقع به قضاء وقدر، بل يحصل لنا بواسطة العمل من غير سبق قضاء وقدر به . قال السندي: فنبَّه على الجواب عنه بأن الله -تعالى- دبَّر الأشياء على ما أراد، وربط بعضها ببعض، وجعلها أسباباً ومسبَّبات، ومن قدر له أنه من أهل الجنة قدر له ما يُقرِّبُه إليها من الأعمال، ووفقه لذلك بإقداره وتمكينه منه وتحريضه بالترغيب والترهيب، ومن قَدَّر له أنه من أهل النار قَدَّر له خلاف ذلك وخذله حتى اتبع هواه، وترك أمر مولاه، والحاصل أنه جعل الأعمال طريقاً إلى نيْل ما قدر له من جنة أو نارٍ، فلا بُدَّ من المشي في الطريق، وبواسطة التقدير السابق يتيسَّرُ ذلك المشي لكلٍّ في طريقه، ويسهل عليه، والله تعالى أعلم.

(٥) انظر مسند الإمام أحمد: ط/الرسالة: باب مسند أبى بكر الصديق -رضى الله عنه- ٢٠٠/١

يُؤْمِنُونَ)(سورة الأنعام الآية ١٢٥) يقول مقاتل: (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ) لدينه (يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ) يعنى يُوسع قلبه (وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ) عن دينه (يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً) يعنى بالتوحيد يعنى أبا جهل حتى لا يجد التوحيد من الضيق مجازا ، ثم قال (حَرَجاً) يعنى شاكا (كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ) يقول هو بمنزلة المتكلف الصعود إلى السماء لا يقدر عليه(كَذلِكَ) يعنى هكذا (يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ) يقول الشر(عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) بالتوحيد[١] وقال ابن كثير: (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ) أي ييسره له وينشطه ويُسهله لذلك ، فهذه علامات على الخير، وقيل: يُوسع قلبه للتوحيد والإيمان به، وقوله تعالى: (وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً) وهو الذي لا يتسع لشيء من الهدى، ولا يخلص إليه شيء ما ينفعه من الإيمان، ولا ينفذ فيه . وقوله ضيقا حرجا: يعنى شاكا وقيل: ضيقا حرجا أي ليس للخير فيه منفذ، كأنما يصّعد في السماء من شدة ذلك عليه . وقيل لا يجد فيه مسلكا إلا صعدا من ضيق صدره . وقيل: مثله كمثل الذي لا يستطيع أن يصعد إلى السماء، وقال ابن جرير: وهذا مَثَلٌ ضربه الله لقلب هذا الكافر في شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه، يقول: فمثله في امتناعه من قبول الإيمان وضيقه عن وصوله إليه، مثل امتناعه عن الصعود إلى السماء وعجزه عنه، لأنه ليس في وسعه وطاقته، وأما في قوله تعالى: (كَذلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) يقول: كما يجعل الله صدر من أراد إضلاله ضيقا حرجا، كذلك يُسلط الله الشيطان عليه وعلى أمثاله، ممن أبى الإيمان بالله ورسوله فيُغويه ويصده عن سبيل الله.[٢] ففى هذه الآية بيّن –سبحانه وتعالى– أن هدايته لمن اهتدى من عباده إنما هى أن يشرح صدره لقبول الإسلام ، ويوصل إلى قلبه محبته ، فيؤمن ويصدق ، وأن إضلاله لمن أضل منهم إنما هو أن يُضيّق صدره عن قبول الإسلام ، وأن يجعله شاكا حتى لا يرغب فيه ، فإذا وصل إلى هذه الحالة لا يقدر أحد على هدايته بعد أن أضله الله ، قال تعالى:(مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً)(سورة الكهف الآية ١٧) وفى هذا يقول مقاتل: (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ) لدينه (فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ) عن دينه الإسلام (فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا) يعنى صاحبا (مُرْشِداً) يعنى يُرشده إلى الهدى لأن وليه مثله فى الضلالة[٣] وقال –سبحانه– أيضا:(يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَما يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفاسِقِينَ)(سورة البقرة الآية ٢٦) يقول مقاتل: أى يُضل الله بهذا المثل كثيرا من الناس ويهدى بهذا المثل

(١) تفسير مقاتل ج١ ص٥٨٨
(٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٠١، ٣٠٢
(٣) تفسير مقاتل ج٢ ص٥٧٨

كثيرا من الناس[١] ويقو ابن جرير: ومعنى الكلام: أن الله يُضلّ بالمثل الذي يضربه كثيرًا من أهل النفاق والكفر، ويهدي بهذا المثل كثيرًا" من المؤمنين فيكون المعن أن الله -تعالى-يزيد هؤلاء ضلالا إلى ضلالهم، لتكذيبهم بما قد علموه حقًّا يقينًا من المثل الذي ضربه الله ، لِمَا ضرَبه له، وأنه لِمَا ضرَبه له موافق . فذلك إضْلال الله إياهم به . و"يهدي به"، يعني بالمثل، كثيرًا من أهل الإيمان والتصديق، فيزيدهم هدى إلى هُداهم وإيمانًا إلى إيمانهم . لتصديقهم بما قد علموه حقًّا يقينًا أنه موافق ما ضرَبه الله له مثلا وإقرارُهم به . وذلك هدايةٌ من الله لهم به [٢] وأما بالنسبة إسناد الإضلال من الله -تعالى- بالختم أو الطبع أو ما فى معناهما إليه -سبحانه وتعالى- فنأتى أولاً بالكلام على الختم: فمثلا فى قوله تعالى:(خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ)(سورة البقرة ٧) وفى هذه الآية يقول مقاتل: (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ) يعنى طبع الله على قلوبهم فهم لا يعقلون الهدى (وَعَلَى سَمْعِهِمْ) يعنى على آذانهم فلا يسمعون الهدى (وَعَلَى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ) يعنى غطاء فلا يبصرون الهدى (وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ) يعنى وافر لا انقطاع له[٣] ويقول ابن جرير فى هذه الآية: فأخبر -صلى الله عليه وسلم- أنّ الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلفتها أتاها حينئذ الخَتْم من قبل الله -عز وجلّ- والطبع، فلا يكون للإيمان إليها مَسْلك، ولا للكفر منها مَخْلَص، فذلك هو الطَّبع . والختم الذي ذكره الله -تبارك وتعالى- في قوله: (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ)، نظيرُ الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف، التي لا يُوصَل إلى ما فيها إلا بفضِّ ذلك عنها ثم حلّها. فكذلك لا يَصل الإيمان إلى قلوب من وَصَف الله أنه ختم على قلوبهم، إلا بعد فضِّه خَاتمَه وحلِّه رباطَه عنها [٤]

ثانيا مثال الطبع ، قال تعالى:(وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً)(سورة النساء الآية ١٥٥) وفى هذه الآية يقول مقاتل: (وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنا غُلْفٌ) يعنى فى أكنه عليها الغطاء فلا تفقه ولا تفهم ما تقول يا محمد ، كراهية ما سمعوا من النبى -صلى الله عليه وسلم- من كفرهم بالإنجيل والفرقان ، (بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْها) يعنى ختم على قلوبهم ، (فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّقَلِيلاً) يقول ما أقل ما يؤمنون فإنهم لايؤمنون البته [٥]

(١) المصدر السابق ج١ ص٩٥
(٢) تفسير الطبرى ج١ ص٤٠٨
(٣) تفسير مقاتل ج١ ص٨٨
(٤) تفسير الطبرى ج١ ص٢٦١
(٥) تفسير مقاتل ج١ ص٤١٩ ، ٤٢٠

ويقول ابن كثير: وقولهم: قلوبنا غلف أي في غطاء، أى أن قلوبهم لا تعي ما يقول، لأنها في غلف وفي أكنة، بل هي مطبوع عليها بكفرهم [١]

وقوله تعالى:(كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ)(سورة الأعراف الآية ١٠١) يقول مقاتل: (كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ) يعنى هكذا يختم الله بالكفر (عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ)[٢] ويقول ابن القيم –رحمه الله–:(وقد اتفقت رسل الله من أولهم إلى آخرهم ، وكتبه المنزله عليهم ، على أنه –سبحانه– يُضل من يشاء ويهدى من يشاء ، وأنه من يهده الله فلا مضل له ، ومن يُضلل فلا هَادِيَ له وأن الهدى والإضلال بيده لا بيد العبد ، وأن العبد هو الضالّ أو المهتدى ، فالهداية والإضلال فعله –سبحانه– وقدره ، والإهتداء والضلال فعل العبد وكسبه) [٣]وهذا هو ما وضحه الإمام مقاتل فى معنى الهداية والإضلال ، ونسبتهما إلى الله ، وهو مُوافق لما قرره الله –تعالى– في كتابه الكريم كما ذكرنا سابقا ، ومُوافق لما عليه جمهور أهل العلم [٤]

الحكمة والتعليل فى أفعال الله –تعالى–:

ذهب الإمام مقاتل –رحمه الله– فى هذه المسألة مذهب جمهور أهل السّنة ، وهو إثبات الحكمة والتعليل فى أفعال الله –تعالى– أى أن أفعال الله –تعالى– معللة بعلل غائية ، وحكم بالغة ، يحبها ويرضاها ، وأنه مما ينافى كماله وجلاله ، وحكمته ، ورحمته ، أن تكون أفعاله وأحكامه صادرة منه لا لحكمة ، ولا لغاية مطلوبة ، بل بمحض المشيئة والإرادة ، وقد دلّ على ذلك القرآن الكريم فى عدة آيات ، فمثلاً قوله تعالى وهو يُثنى على المؤمنين: (وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)(سورة آل عمران الآية١٩١) يقول مقاتل عند تفسيره لهذه الآية: (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا) يقول: عبثا لغير شىء لقد خلقتهما لأمر قد كان[٥] ويُفهم من تفسير مقاتل أيضا أن الله –عزوجل– لم يخلق هذا الكون عبثا بل خَلْقَتُه إياه دليلاً على حكمته وقدرته ، وأن كلمة (سُبْحَانَكَ) يعنى تنزيها لك يارب عما لا يليق بك من الأمور التى من جملتها أن يكون خلقك لهذه المخلوقات باطلا .

(١) تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٩٦

(٢) تفسير مقاتل ج٢ ص٥٢

(٣) شفاء العليل: ابن القيم ١٤١

(٤) انظر الشريعة للآجرى ١٥٧،١٥٤،١٥١ ، وشرح كتاب الفقه الأكبر لأبى حنيفة: شرح الملا على القارى ٧٣–٧٧ ، ومجموع فتاوى ابن تيمية ٧٨،٧٩/٨، وشرح العقيدة الطحاوية: ابن أبى العز الحنفى ١٥٥، ١٥٦

(٥) تفسير مقاتل ج١ ص٣٢١

وذكر الإمام الطبرى فى تفسيره نحوا مما ذكره الإمام مقاتل فقال:(رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا) يقول: لم تخلق هذا الخلق عبثًا ولا لعبًا، ولم تخلقه إلا لأمر عظيم من ثواب وعقاب ومحاسبة ومجازاة، وإنما قال:"ما خلقت هذا باطلا" ولم يقل:"ما خلقت هذه، ولا هؤلاء"، لأنه أراد بـ"هذا"، الخلقَ الذي في السموات والأرض . يدل على ذلك قوله: (سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)، ورغبتهم إلى ربهم في أن يَقِيَهُم عذاب الجحيم .

ولو كان المعنيّ بقوله: ما خلقت هذا باطلا، السموات والأرض، لما كان لقوله عُقيب ذلك: فقنا عذاب النار، معنى مفهوم. لأن"السموات والأرض" أدلة على بارئها، لا على الثواب والعقاب، وإنما الدليل على الثواب والعقاب، الأمر والنهي .

وإنما وصف جل ثناؤه:"أولي الألباب" الذين ذكرهم في هذه الآية: أنهم إذا رأوا المأمورين المنهيّين قالوا:"يا ربنا لم تخلُق هؤلاء باطلا عبثًا سبحانك"، يعني: تنزيهًا لك من أن تفعل شيئًا عبثًا، ولكنك خلقتهم لعظيم من الأمر، لجنة أو نار[١]

وأيضا قوله تعالى: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)(سورة الدخان الآية ٣٨، ٣٩) يقول مقاتل: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ) يعنى عابثين لغير شىء ، يقول: لم أخلقهما باطلا ، ولكن خلقتهما لأمر هو كائن (مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ) يعنى كفار مكة (لَا يَعْلَمُونَ) أنهما لم يُخلقا باطلا[٢]

ومعنى كلمة لاعبين أيضا غير عابثين بل خلقناهما لغرض محمود ، وفى هذا يقول ابن القيم: هو الحكم والغايات المحمودة التى لأجلها خلق ذلك كله ، وهو أنواع كثيرة[٣]

ولقد استشْهَد الإمام القرطبى بما قاله الإمام مقاتل فى تفسيره فقال فى قَوْلُهُ تَعَالَى:" وَمَا خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ" أَيْ غَافلِينَ، قَالَهُ مُقَاتِلٌ. وقيل: لاهين، وهو قول الكلبي." وما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ" أَيْ إِلَّا بِالْأَمْرِ الْحَقِّ، قَالَهُ مُقَاتِلٌ. وَقِيلَ: إِلَّا لِلْحَقِّ، قَالَهُ الْكَلْبِيُّ والحسن. وقيل: إلا لإقامة الحق وإظهاره مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَالْتِزَامِ طَاعَتِه . وَقَدْ مَضَى هَذَا الْمَعْنَى فِي" الْأَنْبِيَاءِ" ." وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ" يَعْنِي أكثر الناس." لا يَعْلَمُونَ" ذلك [٤]

وأيضا قوله تعالى: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا)(سورة ص الآية ٢٧) ويقول مقاتل فى هذه الآية: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا

(١) تفسير الطبرى ج٧ ص٤٧٦

(٢) تفسير مقاتل ج٣ ص٨٢٤

(٣) شفاء العليل: ابن القيم ص٤٠٤

(٤) الجامع لإحكام القرآن: للقرطبى ، دار إحياء التراث العربى ، ج١٦ ص١٤٧

بَيْنَهُمَا بَاطِلًا) يعنى لغير شىء ولكن خلقتهما لأمر هو كائن (ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا) من أهل مكة (أنى) خلقتهما لغير شىء [١] ويقول الإمام القرطبى فى هذه الآية أيضا:" وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا باطِلًا" أَيْ هَزْلًا وَلَعِبًا. أَيْ ما خلقناهما إِلَّا لِأَمْرٍ صَحِيحٍ وَهُوَ الدَّلَالَةُ عَلَى قُدْرَتِنَا[٢] وقد أنكر –سبحانه وتعالى– على أمثال هؤلاء فى آية أخرى ، وهى قوله تعالى:(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ)(سورة المؤمنون الآية ١١٥، ١١٦) يقول مقاتل:(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً) يعنى لعبا وباطلا لغير شىء: أن لا تُعذَبوا إذا كفرتم (و) حسبتم (وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لَا تُرْجَعُونَ) فى الآخرة ، (فَتَعالَى اللَّهُ) يعنى ارتفع الله – عزوجل– (الْمَلِكُ الْحَقُّ) أن يكون خلق شيئا عبسا ما خلق شيئا إلا لشىء يكون ، لقولهم أن معه إلها ، ثم وحّد الربُّ نفسه –تبارك وتعالى– فقال: (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) [٣]

إن فى هذه الآيات الكريمات وأمثالها دلالة ظاهرة على أن الله خلق الخلق غير عابث ولا لاعب ، بل لحكمة وغاية يعلمها ، ولا يلزم من إثبات الحكمة فى أفعال الله أن نعلم الحكمة فى كلّ فعل ، إذْ قد تَخْفَى الحكمة فى بعض الأفعال وقد لا تَخفَى ، فلله الحكمة البالغة ، لا تبلغها عقول البشر، ولا تُدْركها الأفهام . وفى هذا يقول مقاتل –رحمه الله– فى تفسيره لقوله تعالى:(وَإِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ)(سورة الأنعام الآية ٣٥) يقول: (وَإِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ) يعنى ثَقُلَ عليك (إِعْراضُهُمْ) عن الهدى ولم تصبر على تكذيبهم إياك (فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ) يعنى سربا (أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ) أى فإن لم تستطع فأت بسلم ترقى فيه إلى السماء (فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ) فافعل إن استطعت . ثم عزّى نبيه –صلى الله عليه وسلم– ليصبر على تكذيبهم فقال:(وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ) فإن الله لو شاء لجعلهم مهتدين . [٤] رغم تمرد الكفرة وتصميمهم على كفرهم إذ أن لله –سبحانه وتعالى– حكمة بالغة لا تبلغها العقول ولا تدركها الأفهام إذ لو أنه –سبحانه وتعالى– جاء لرسوله –صلى الله عليه وسلم– بآية تضطرهم إلى الإيمان لم يبق للتكليف الذى هو

(١) تفسير مقاتل ج٣ ص٦٤٢

(٢) الجامع لإحكام القرآن: للقرطبى ، دار إحياء التراث العربى ، ج١٥ ص١٩١

(٣) تفسير مقاتل ج٣ ص١٦٨

(٤) تفسير مقاتل ج١ ص٥٥٩

الإبتلاء والإمتحان معنى ولهذا قال: (وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ) .

ففى قوله تعالى:(وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ)(سورة النحل الآية٧١) يقول مقاتل: (وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ) يعني جعل بعضكم أحرارا، وبعضكم عبيدا فوسّع على بعض الناس وقتر على بعض (فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا) يعنى فى الرزق من الأموال (بِرَادِّي رِزْقِهِمْ) يقول برادي أموالهم (عَلى مَا مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ) يعني عبيدهم يقول: أفيشركونهم وعبيدهم في أموالهم (فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ) فيكونون فيه سواء، بأنهم قوم لا يعقلون شيئا (أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) يعني يُنكرون بأن الله يكون واحدا لا شريك له وهو رب هذه النعم، يقول: كيف أُشْرِكُ الملائكة وغيرهم في ملكي وأنتم لا ترضون الشركة من عبيدكم في أموال فكما لا تدخلون عبيدكم في أموالكم فكذلك لا أُدْخِل معي شريكا في ملكي وهم عبادي، وذلك حين قال كفار مكة في إحرامهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه، وما ملك [1] والمعنى الذى يُفهم من هذه الآية أن الله -عزوجل- وسّع على بعض عباده وضيق على آخرين وذلك لحكمة بالغة ، تقصر عقول العباد عن تعقلها ، والإطلاع على حقيقة أسبابها ، وهذا أيضا يجعلنا ندرك حقيقة أخرى وهى: كما جعل الله -عزوجل- تفاوت بين عباده فى مسألة الرزق جعل أيضا بينهم تفاوت فى أشياء أخرى وهى: العقل والعلم والفهم وقوة البدن وضعفه والحُسن والقبح ، والصحة والسقَم ، إلى غير ذلك من الأحوال .

فهذه حكمة من الله -عزوجل- والحكمة صفة من صفات الله -تعالى- شأنها كشأن غيرها من الصفات ، وليست لأحدٍ غيره ، كما أنه -سبحانه- من أسمائه الحكيم ، ومعنى الحكيم أى الذى لا تخلو أفعاله ومقاديره من حكمة وغاية حميدة ، قال تعالى: (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (سورة البقرة الآية ١٢٩) يقول مقاتل: (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ) يقول: يعلمهم ما يُتلى عليهم من القرآن ثم قال: (وَالْحِكْمَةَ) يعنى المواعظ التى فى القرآن من الحلال والحرام (وَيُزَكِّيهِمْ) يعنى ويطهرهم[2] من الشرك والكفر (إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) فاستجاب الله له [3] ومعنى الحكيم أيضا: فهى صيغة مبالغة فى إثبات الحكمة لله -تعالى- وأيضا من معانى الحكيم أنه يتصرف فى

(١) المصدر السابق ج٢ ص٤٧٧

(٢) المصدر السابق ج١ ص١٣٩

(٣) تفسير مقاتل ج١ ص١٣٩

ملكه بما تقضيه مشيئته وحكمته وإذا كان الله –عزوجل– يُعطى الحكمة من يشاء إذن فهو حكيم وهذا مما لا شك فيه . وهذا ما قرره مقاتل فى تفسيره ، وغيره أيضا من المفسرين فى معنى الحكمة فى أفعال الله .

وأما التعليل فى أفعال الله فقد ورد فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة ، فمثلاً قوله تعالى:(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)(سورة الذاريات الآية ٥٦) يقول مقاتل: يعن إلا ليوحدون ، وقالوا إلا ليعرفون ، يعنى ما أمرتهم إلا بالعبادة ولو أنهم خُلقوا للعبادة ما عصوا طرفة عين .[١] فهنا اللام الداخلة على الفعل لام التعليل عند جمهور أهل السنة خلافا لمن ينفى ذلك من الأشاعرة وغيرهم ، ويسمونها لام العاقبة والصيرورة [٢]

وأيضا قوله تعالى: (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) (سورة الفتح الآية ١ ، ٢) قال مقاتل:(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ) يعنى قضينا لك (فَتْحًا مُبِينًا) يعنى قضاءً بيناً ، يعنى الإسلام (لِيَغْفِرَ) يعنى لكى يغفر (لَكَ اللَّهُ) بالإسلام (مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ) يعنى ما كان فى الجاهلية (وَمَا تَأَخَّرَ) يعنى وبعد النبوة [٣]وهنا اللام الداخلة على الفعل لام تعليل وهذا يُفهم من تفسير مقاتل –رحمه الله– فهى علة للفتح ، ونُقِلَ عن صاحب الكشاف غير ذلك فقال: (إن اللام لم تكن علة للمغفرة ، ولكن لاجتماع ما عدّد من الأمور الأربعة: وهي المغفرة وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز، كأنه قيل: يسرنا لك فتح مكة، ونصرناك على عدوّك، لنجمع لك بين عز الدارين وأغراض العاجل والآجل.) [٤]وقوله تعالى:(وَما أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّـهَ مُخْلِصينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ) (سورة البينة الآية ٥) يقول مقاتل: (وَما أُمِرُوا) يعنى ما أمرهم محمد –صلى الله عليه وسلم– (إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) يعنى به التوحيد (حُنَفَاءَ) يعنى مسلمين غير مشركين [٥]ويُفهم من تفسيره أيضا أن اللام الداخلة على الفعل أيضا لام تعليل ، فإن علة الأمر هنا هى عبادته –سبحانه– وتوحيده .

وأيضا قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) (سورة هود الآية ٧) يقول مقاتل: يعنى خلقهما لأمر هو

(١) المصدر السابق ج٤ ص١٣٣

(٢) انظر مجموع فتاوى: ابن تيمية: ٣٧/٨، ٣٨، ٤٤، وأيضا ١٨٦ ، ١٨٧، ومهاج السنة: ابن تيمية: ١٤/٣، ٣٢

(٣) تفسير مقاتل ج٤ ص٦٥ ، ٦٦

(٤) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: للزمخشرى (أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله)(المتوفى: ٥٣٨هـ) الناشر: دار الكتاب العربي –بيروت ، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ ، ج٤ ص٣٣٢

(٥) تفسير مقاتل ج٤ ص٧٨٠

كائن . خلقهما وما فيهما من الآيات ليختبركم [١] وقوله تعالى: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)(سورة الملك الآية ٢) يقول مقاتل أيضا: يعنى ليختبركم بها [٢] ففى هاتين الآيتين يُفهم من تفسيره -رحمه الله- أن اللام هنا لام تعليل أيضا ، لأن علة خلق هذه المخلوقات لكى يختبر عباده بالإعتبار والتفكر ، والإستدلال على كمال قدرته فى الإماتة والإحياء ، والبعث والجزاء ، فيجازى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته .وأيضا فى قوله تعالى عن المسيح عيسى بن مريم -عليه السلام-:(وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ) (سورة مريم الآية ٢١) يقول مقاتل: ولكى نجعله عبرة للناس [٣]فيُفهم من تفسيره أيضا هنا أن اللام هنا لام تعليل ، فيكون معنى الكلام أن هذا الغلام الذى خُلِقَ من غير أب آية للناس يستدلون بها على كمال قدرته -سبحانه وتعالى- وأيضا جاءت اللام فى تفسير مقاتل لام تعليل وهذا فُهِمَ من تفسيره أيضا فهو لم يذكر هذا صراحة ولكن فُهِمَ من تفسيره ففى قوله تعالى: (إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ) (سورة البقرة الآية ١٤٣) يقول مقاتل: (إِلَّا لِنَعْلَمَ) يعنى إلا لنرى (مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ) يعنى محمد -صلى الله عليه وسلم- على دينه فى القبلة ومن يُخالفه من اليهود (مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ) يقول ومن يرجع إلى دينه الأول[٤] وقوله تعالى:(وَمَا أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (سورة إبراهيم الآية٤) يقول مقاتل:(وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسانِ قَوْمِهِ) يعنى بلغة قومه ليفهموا قول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فذلك قوله -سبحانه- (لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ) على ألسنة الرسل على دينه الهدى (وَيَهْدِي) إلى دينه الهدى على ألسنة الرسل (مَنْ يَشاءُ) ثم رد المشيئة إلى نفسه فقال: (وَهُوَ الْعَزِيزُ) فى ملكه (الْحَكِيمُ) حكم الضلالة والهدى لمن يشاء[٥] وقوله تعالى:(لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)(سورة سبأ الآية٤) يقول مقاتل: لكى يجزى يوم القيامة الذين صدقوا بالعدل فيغفر لهم ذنوبهم[٦] ففى هذه الآيات الكريمات يُفهم من تفسيره أيضا أن هذه اللام لام تعليل أيضا .

(١) تفسير مقاتل ج٢ ص٢٧٢
(٢) المصدر السابق ج٤ ص٣٩٠
(٣) المصدر السابق ج٢ ص٦٢٤
(٤) المصدر السابق ج١ ص١٤٥
(٥) المصدر السابق ج٢ ص٣٩٧ ، ٣٩٨
(٦) المصدر السابق ج٣ ص٥٢٣ ، ٥٢٤

وجاء التعليل فى أفعال الله –تعالى– بلفظ من أجل ، مثال ذلك فى قوله تعالى: (مِنْ أَجْلِ ذلكَ كَتَبْنا عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاها فَكَأَنَّما أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً) يقول مقاتل: (مِنْ أَجْلِ ذلكَ) يعنى من أجل ابنى آدم تعظيما للدم (كَتَبْنا عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ) فى التوراة (أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ) عمدا (أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ) أو عَمِلَ فيها بالشرك وجبت له النار ولا يعفى عنه حتى يُقتل [1] والمعنى كما قال القرطبى: أَيْ مِنْ سَبَبِ هَذِهِ النَّازِلَةِ كَتَبْنَا. وَخَصَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالذِّكْرِ– وَقَدْ تَقَدَّمَتْهُمْ أُمَمٌ قَبْلَهُمْ كَانَ قَتْلُ النَّفْسِ فِيهِمْ مَحْظُورًا– لِأَنَّهُمْ أَوَّلُ أُمَّةٍ نَزَلَ الْوَعِيدُ عَلَيْهِمْ فِي قَتْلِ الْأَنْفُسِ مَكْتُوبًا، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ قَوْلًا مُطْلَقًا، فَغُلِّظَ الْأَمْرُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالْكِتَابِ بِحَسَبِ طُغْيَانِهِمْ وَسَفْكِهِمُ الدِّمَاءَ [2] وجاء التعليل فى أفعال الله تعالى بلفظ لعل كما فى قوله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)(سورة يوسف الآية ٢) يقول مقاتل: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ) يعنى لكى (تَعْقِلُونَ) ما فيه لو كان القرآن غير عربى ما فهموه ولا عقلوه [3] فيُفهم من تفسيره هنا أيضا لكى تعلموه ولكى تفهموا ما فيه فجاءت لعل هنا للتعليل . هذا ما أردنا توضيحه فى تعليل أفعال الله من خلال تفسير الإمام مقاتل للآيات الدالة على ذلك وهذا ما قرره جمهور أهل السنة والجماعة .

ومما سبق يتبين لنا أن الإمام مقاتل –رحمه الله– يتفق تفسيره مع جمهور أهل السنة والجماعة فى الآيات الدالة على الحكمة والتعليل فى أفعال الله –تعالى–

(١) تفسير مقاتل ج١ ص٤٧١، ٤٧٢

(٢) الجامع لإحكام القرآن: للقرطبى ، دار إحياء التراث العربى ، ج٦ ص١٤٦

(٣) تفسير مقاتل ج٢ ص٣١٨

الخاتمة

هذا الكتاب طُبِعَ ثلاث مرات ، الطبعة الأولى: شبه مفقودة الآن ، وطُبِعَ منها مجلد واحد وهى طبعه جيدة إلا أنها غير موجودة الآن ، والطبعة الثانيه: طبعتها دار إحياء التراث فى خمسة مجلدات ولكن يعيب هذ الطبعة أنها قد بالغت فى نقل النص القرآنى فهم يكتبون السورة كاملة قبل تفسيرها والآيات بعد ذلك مكتوبة مرة أخرى مع تفسيرها ولذلك تضخم هذا الكتاب فى خمسة مجلدات وكان حقه أن يَخرج فيما دون ذلك . ثم طُبِعَ طبعةً أخرى فى دار الكتب العلمية فى ثلاث مجلدات وهى طبعة جيدة لكنها خالية من التحقيق العلمى لكن طبعة د: عبد الله محمود شحاته طبعة جيدة من حيث التحقيق العلمى إلى حد ما.

١- اهتم مقاتل في تفسيره بذكر مقاصد سور القرآن وبيانها وعَنَى أيضا بأسباب النزول . وعَنَى أيضا بمبهمات القرآن .

٢- إن فى تفسير مقاتل ما يؤيد أنه كان شيعيا زيديا، غير أن تشيعه مقصور على تفضيل الإمام على-رضى الله عنه-

٣- إن مقاتل بن سليمان زيدى المذهب ، وهذا المذهب قريب جدا من المذاهب الأربعة

٤- سلك مقاتل في تفسيره لآيات العقيدة مسلك أهل السنة والجماعة في توحيد الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ، إلا أن بعض الصفات بالغ فيها حتى وقع في التشبيه والتجسيم .

٥- اهتم مقاتل في تفسيره اهتماما كبيرا بالتوحيد .

٦- أيّد مقاتل بن سليمان ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة بأن الله هو المتفرد بالخلق لا أحد سواه .

٧- أثبت مقاتل المشيئة لله -تعالى- وأن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الرب -سبحانه وتعالى- .

٨- بيّن مقاتل في تفسيره أن الله يهدى من يشاء ويضل من يشاء وأن الأمر بيده فمن شاء أن يهديه يجعله على صراط مستقيم ومن شاء أن يضله أضله وهذا أيضا ما قرره جمهور أهل العلم

المصادر والمراجع

١- مقاتل بن سليمان: أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخى (المتوفى: ١٥٠هـ) التفسير الكبير: تحقيق: د/ عبد الله محمود شحاته الناشر: دار إحياء التراث – بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٣٣ه

٢- الحسنة والسيئة: ابن تيمية: تحقيق ، د/ محمد جميل غازى ، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان

٣- طاش كبرى زاده: مفتاح السعادة: دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٥ه ، ١٩٨٥م .

٤- الطبري:(محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي)، جامع البيان في تأويل القرآن، ت: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م .

٥- أبو الطيب المكي، ذيل التقييد في رواة السنن والأسانيد، ت: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .

٦- ابن عثيمين:(محمد بن صالح بن محمد العثيمين) (المتوفى: ١٤٢١هـ) ، القول المفيد على كتاب التوحيد: الناشر: دار ابن الجوزي .

٧- ابن عرفة ، تفسير ابن عرفة، ت: جلال الأسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان٢٠٠٨م .

٨- العراقي:(أبي محمد بن عبد الله بن الحسن العراقي الحنفي) ، الفرق المفترقة بين أهل الزيغ والزندقة: تحقيق يشار قوتلوآي، طبع أنقرة سنة ١٩٦١ م .

٩-ـ ابن عساكر: (على بن الحسن بن عساكر) التاريخ الكبير: ت: عبد القادر بدران: مكان النشر ، دمشق: مطبعة روضة الشام ، الطبعة ١٣٣٠ه ، مكتبة لسان العرب .

١٠- القرطبى: (الجامع لأحكام القرآن) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش: الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م .

١١- ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) : شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، المؤلف: مكتبة دار المعرفة ، بيروت، لبنان ، ط: ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م